

الوحي

عناصر الموضوع

٨	مفهوم الوحي
٩	الوحي في الاستعمال القرآني
١٠	الأنفاظ ذات الصلة
١١	الموحي به في القرآن
١٨	مقامات الوحي
٢١	الموحي إليهم في القرآن
٢٨	التعامل مع الوحي
٣٦	موقف المعرضين من الوحي

مفهوم الوحي

أولاً: المعنى اللغوي:

ورد في كتب اللغة أن الواو والحاء والياء: أصل يدل على إلقاء علم من طرف لآخر في خفاء^(١)، فالإشارة، والكتابة، والإيماء، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقته إلى غيرك من علم^(٢).

ويأتي الوحي بمعنى السريع، ويأتي بمعنى الصوت، وحاة الرعد: هو صوته الممدود الخفي، واستوحيناهم: استصرخناهم. والوحي: السرعة، يمد ويقصر. ويقال: الوحي الوحي: يعني البدار البدار، وتوح يا هذا: أسرع، ووحاه توحية: عجله. والوحي على فاعل: السريع^(٣).

وقد ذكر الشيخ مناع القطان في تعريفه لغة أنه: «الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره»^(٤).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

وذكر السمين الحلبي تعريفاً آخر له: «إلقاء معنى الكلام إلى من يريد إعلامه، والوحي يكون بالرمز والإشارة»^(٥).

وقال الشيخ مناع القطان: «وحي الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعاً بأنه: كلام الله تعالى المُنزَّل على نبي من أنبيائه. وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

والوحي بالمعنى المصدري اصطلاحاً: هو إعلام الله تعالى من يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة»^(٦).

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٩٣/٦.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢٥١٩/٦، لسان العرب، ابن منظور، ٣٧٩/١٥، الكليات، الكفوي، ص ٩١٨.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢٥٢٠/٦، المصباح المنير، الفيومي، ٦٥٢/٢، لسان العرب، ابن منظور، ٣٨٢/١٥.

(٤) مباحث في علوم القرآن، ص ٢٨.

(٥) الدر المصون ١٧٣/٣.

(٦) مباحث في علوم القرآن، ص ٢٩.

الوحي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وحي) في القرآن الكريم (٧٨) مرة^(١).
والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤٤	﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَهْلُ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]
المصدر	٦	﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]

وجاء الوحي في القرآن على خمسة أوجه^(٢):

الأول: الإرسال: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]. يعني: أرسلنا.

الثاني: الإشارة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]. يعني: أشار إليهم.

الثالث: الإلهام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ يَتُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]. يعني: ألهمها.

الرابع: الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]. يعني: أمرها أي: الأرض.

الخامس: الوسوسة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]. يعني: يوسوسون لهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٤٦-٧٤٧.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٦٢١-٦٢٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السنة:

السنة لغةً:

الطريقة، والسيرة المعتادة للإنسان، سواء كانت حسنة أو قبيحة^(١).

السنة اصطلاحاً:

كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة^(٢)، قبل البعثة أو بعدها.

الصلة بين السنة والوحي:

الوحي أعم وأوسع من السنة، فالسنة هي الفرع الثاني للوحي، حيث إن الوحي فرعان: الأول كلام الله المنزل على رسله، والثاني السنة وهو ما لم يكن من كلام الله، بل من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه من عند الله، ومن السنة ما لا يكون حياً، باعتبار ما كان صفة خلقية، أو ما كان قبل البعثة.

٢ الرسالة:

الرسالة لغةً:

العبارات المؤلفة والمعاني المدونة المبعوثة من شخص لآخر بواسطة ناقل^(٣).

الرسالة اصطلاحاً:

هي ما يبعث الله به من شاء من عباده من أحكام تكليفية وأخبار يلزمهم تصديقها.

الصلة بين الوحي والرسالة:

الوحي هو المصدر الذي تستمد منه الأحكام والأخبار، موجه للنبي أو الرسول، ويكون في الوحي أيضاً ما ليس تشريعاً، بينما الرسالة فهي شريعة موجهة للناس بواسطة الرسول.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٤١٧/٨، تاج العروس، الزبيدي، ٢٣٠/٣٥، لسان العرب، ابن منظور، ٢٢٥/١٣.

(٢) انظر: السنة قبل التدوين، محمد عجاج ص ١٦.

(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٤٧٦.

الموحى به في القرآن

استقامتها، والمودي إلى الهلاك فسادها وانحرافها، جعل الله عز وجل لها الحظ الأوفر من القرآن الكريم، وبين أن هذه سنته في الرسالات كلها، يقول الله جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُهُ اللَّهُ يَجْتَنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

والدين الذي شرعه الله لنا وكان وصيته لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى هو عبادة الله وحده، وفيه قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعبادة الله مبناها الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أخبار وعقائد، وهي دين الإسلام الذي ارتضاه تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ولا يصح إسلام العبد إلا أن يؤمن بأصول الدين والإيمان، وهي كما أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم في إجابته على سؤال جبريل: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) ^(٢)، فهذا هو الدين الذي أمر

^(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، والإحسان، ٢٩/١، رقم ١.

خلق الله عباده عالمًا بما طبعهم عليه من صفات، وما ركبهم فيهم من غرائز، وما توعدهم به عدوهم الألد إبليس من الإضلال والإغواء، وتزيين الانحراف عن الحق، وما يترتب على ذلك من تضاؤل شعورهم بالحقائق التي جعل علمها والعمل بمقتضاها واجبًا عليهم، وهي الحقائق التي جعلها سببًا للثواب والعقاب، إنها الحقائق التي ما خلقهم إلا لأجلها، ولعلاج هذا التضاؤل والوقاية مما يترتب عليه من الإعراض عن المقصد الذي خلقوا من أجله وتركه تكفل الله لهم بأن يبعث لهم من يذكرهم بهذه الحقائق، وما يسعى فيه عدوهم من الكيد لهم، وقد كانت وسيلة ذلك هي الوحي الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه ^(١).

وقد نزل القرآن منبهاً على هذه الحقائق، وهي العقائد، والتشريع، وأخبار الأنبياء، والسنن الربانية، وبيانها فيما يلي:

أولاً: العقائد:

لما كانت العقيدة هي المحور الأساس، والمحرك الأقوي للتأثير في السلوك والاتباع، ولما كان المعول في النجاة على

^(١) انظر: تفسير المراغي ٢٥/٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٧.

الله رسله وأنبياءه، وأمرنا أن نقيمه، ونهانا عن التفرق فيه^(١)، لا يتم لنا إقامة الدين إلا بالإيمان بهذه الأصول على النحو الآتي:

١. أن الله واحد لا شريك له^(٢).

وذلك في:

❖ ألوهيته: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

❖ ربوبيته: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

❖ أسمائه وصفاته: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وقد جمع هذه الأمور الثلاثة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٢. الإيمان بالملائكة.

وقد أمر الله عز وجل بالإيمان بهم في غير موضع من كتابه.

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب، ٩٧٦/٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١٧/٣.

يقول تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والإيمان بهم يستدعي الإيمان بأنهم عباد لله تعالى، وأن لهم وظائفهم التي كلفهم الله بها، كما بين ذلك في مواضع كثيرة من كتابه، وأنهم لا يعصونه في أمر مهما كان، وأنه خلقهم على هيئات تليق بما كلفوا به من وظائف، فالرسل منهم ليسوا كصاحبي القبر، والذين يتوفون المؤمنين ليسوا كمن يتوفون الكافرين، وخزنة الجنة ليسوا كخزنة النار، وغير ذلك مما جاء في بيان أوصافهم في الكتاب والسنة^(٣).

٣. الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله. وأنها كلامه الذي أوحى به لرسله لهداية عباده وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٤. الإيمان بالأنبياء والرسل.

يقول الله تعالى: ﴿ءَامِنَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(٣) انظر: مزاح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢٧٥/٢.

وَأَنَّ اللَّهَ جَامِعُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛
لَتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ^(٣).

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ
يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

٦. الإيمان بقضاء الله وقدره.

وذلك بأن يؤمن أن الله تعالى^(٤):

﴿عِلْمُ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ حَدُوثِهَا، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا
هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ
مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ
أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ،
قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وأنه أراد إيجاد مخلوقاته من العدم،
قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وأنه هو الخالق البارئ لكل شيء، قال
تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،
٦/١٦.

(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، سعيد
القحطاني، ص ٤٧.

وَكُتِبَ لَهُمُ وَرُسُلِهِمْ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِمْ
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولا يجوز التفريق بينهم فيما جاءوا
للدعوة إليه من توحيد الله جل جلاله^(١)،
وإن كان الله تعالى قد جعل لكل واحد منهم
شريعته الخاصة به وبأمرته.

يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَاءُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
[المائدة: ٤٨].

والإيمان بأن الله أرسلهم ليطاعوا فيما
جاءوا به.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ
إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ
وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا
رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]^(٢).

٥. الإيمان بالله واليوم الآخر.

وكثيراً ما قرن الله بين الإيمان به والإيمان
باليوم الآخر في كتابه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[البقرة: ٦٢].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي،
٦٥٩/١.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٥/٢٤.

ثانيًا: التشريع:

والتشريع هو البناء الذي أقيم على أصول الإيمان، من العبادات، والمعاملات، والأقضية، والحدود، والسياسات، والأخلاق، والأحوال الشخصية، والحقوق وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله بفهم الصحابة رضي الله عنهم.

والقرآن هو المصدر الأول في التشريع، والسنة هي المصدر الثاني للتشريع، ولم تستقل السنة بتقرير التشريع بمعزل عن القرآن؛ وذلك أن الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هو مما أوحى به إلينا في القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَوَلَّوْا تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

كما أن القرآن لم يستقل عن السنة ببيان التشريع.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَمَّا أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال أيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وحتى لا تشتط الأهواء بالناس؛ جعل الله جل جلاله لفهم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة من تشريعات

منضبطة بفهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على نهجهم وأصولهم وقواعدهم المستقرة في تطبيقاتهم للدين في عهد النبي وبعد وفاته^(١).

يقول جل جلاله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والتشريع بذلك ينظم علاقة الإنسان مع غيره من خلال الآتي:

١. العبادات.

وهي عبارة عن علاقة الإنسان بربه، كالصلاة والزكاة والصوم والحج^(٢).

عن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)^(٣).

وقد جاء القرآن أمرًا بهذه الأركان.

٢. المعاملات.

التي اشتملت التعاقدات على جميع صور التعاقدات بين الناس، وبينت أحكامها، وأجازت ما كان قائمًا على العدل،

(١) انظر: السنة ومكانتها، السباعي، ١/ ٣٧٩.

(٢) انظر: زاد السبيل ابن الجوزي، ٢/ ١١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، ١/ ١١، رقم ٨.

ومنعت وجرمت ما يفضي إلى الخصومات والشقاق.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣. الأخلاق النفسية.

بتنظيم سلوكه في الأطعمة والأشربة واللباس والزينة ونحوها^(١).

قال الله جل جلاله: ﴿يَبْقَىٰ عَادَمٌ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّورِي سَوَاءَ بَعْضِكُمْ رِيشًا وَلِبَاسَ الْتَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٤. الأحوال الشخصية.

بيان الحقوق على كل فرد تجاه أفراد أسرته، من خلال الأمر بقوامة الآباء، ورعايتهم للزوجة والأبناء، والأم من حيث بيان حق الزوج، وبيان دورها في رعاية الأبناء، والأبناء بالأمر بالبر بالوالدين، والأرحام من جهة وجوب صلتهم^(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٥. الأخلاق الاجتماعية.

باحترام حقوق الآخرين، والحث على التراحم والتعاون، ودفع الأذى،

والإحسان^(٣).

قال الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

٦. القضاء.

من خلال فض النزاعات والخصومات التي تحدث بين المواطنين، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، على حد سواء في إعطاء كل ذي حق حقه، أو دفع العدوان، أو رفع الظلم^(٤).

قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِمَهْدِ اللَّهِ تَوَفَّوْا ذَلِكَكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧. السياسات.

بيان وجوب السمع والطاعة للحاكم، والنصح والإعانة له على الخير، وعدم الخروج عليه، والأمر للحاكم بالعدل والرفقة، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين، سواء أكانوا داخل حدود دولة المسلمين، كالمعاهد والمستأمن والمستجير، أو خارجها، سواء أكانوا مسالمين أو محاربين^(٥).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ

(٣) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٣٠.

(٤) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٣٢.

(٥) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٤٢.

(١) انظر: زاد المسير ٢/ ١١٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٣.

يَا اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾
[النساء: ٥٩].

ثالثاً: أخبار الأنبياء والأمم السابقة:

لم يكن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بدعاً من الرسل، وكذلك لم تكن أمتنا أيضاً بدعاً من الأمم، بل سبقه رسل وأنبياء كثر، وكذلك سبقت هذه الأمة سابقات من الأمم، ولم تكن سيرة هذه الأمة مع نبيها صلى الله عليه وسلم بمنأى عن سير الأمم السالفة مع أنبيائها؛ لذلك كان في قصصهم عبر، وفي أخبارهم خطر، لا يستغني عن معرفته ذوو البصائر والنظر، لذلك أورد الله تعالى من أخبارهم في كتابه ما فيه مواعظ ونذر، وقد كان منهج القرآن في إيراد القصص منهجاً ربانياً، ليس الغرض فيه من إيرادها التفكه بالحديث أو التلذذ والمسامرة^(١)، بل كان مراده من عرضها:

﴿التَّيْتِ لِقَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فَوَدَّكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾﴾ [هود: ١٢٠].

﴿إيقاظ وتنبيه من الغفلة، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾﴾

(١) انظر: منهجيات التغيير والإصلاح في سور يس، الصافات، إيراد أبو سعدة، ص ٢٤٦.

يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾
[يوسف: ٣].

﴿إنذار بما حدث لمن لم يستجيبوا لرسولهم أن يصيب هذه الأمة ما أصابهم، يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صُفْعَةً يَنْتَلِ صُفْعَةً عَادٍ وَمُؤَدٍّ﴾﴾ [فصلت: ١٣].

﴿الاعتبار بأحوال من سبقها من الأمم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾﴾ [يوسف: ١١١].

كما لم يكن أسلوب القرآن في إيراد قصص الأنبياء مع أممهم أسلوباً سردياً تفصيلياً يحوى التفاصيل الدقيقة للأحداث؛ مما يجعله مملاً، ومفضياً إلى ضياع المعاني، كما في الكتب المحرفة، وإنما كان عرضه لها بذكر مواطن التفكير والاعتبار والانتفاع، وذلك على سبيل الإجمال - وهذا ما يغلب عليه - لا على سبيل التفصيل، إلا فيما دعت الحاجة إلى التفصيل فيه، ويحصل بدوره فوائد معرفة أو ذهاب منفعة بالذكرى والعبرة.

رابعاً: السنن الربانية:

ربط الله جل جلاله بين سننه القدريّة واستجابة العباد لأوامره الشرعية، يقول الله تعالى فيمن أنزل الله عليهم التوراة الإنجيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَحْمَةٍ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقَيْهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقد ذكر الله عز وجل من هذه السنن في كتابه على وفق هذا الناموس الرباني مع سابق الأمم ما كان فيه النذير والتذكير، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وهذا ما تمت الإشارة إليه في السابق، ومن أمثلة ذلك:

❖ ما كان من شأن قوم نوح عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ⑤ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ⑥﴾ [القمر: ٩ - ١٤].

❖ ما حدث لقوم عاد وثمود، يقول الله تعالى في نبئهم: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ① فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ② وَأَمَّا عَادُ فَأَمْلِكُوا يُرْبِعَ صَرْصِرَ عَاتِيَةٍ ③﴾ [الحاقة: ٤ - ٦].

❖ حديث قوم لوط عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ① إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ نَجَاتٍمْ يَسْعَى ②﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٤].

❖ ما كان من فرعون، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ نَالَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ① كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ②﴾ [القمر: ٤١ - ٤٢].

❖ ما ذكره الله من شأن بني إسرائيل مطلع سورة الإسراء، يقول الله جل جلاله: ﴿وَقَصَّيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفُوسَ دَنِّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّ ① عُلُوقًا كَبِيرًا ② فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ③ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ④ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلُوقًا ⑤ تَنْبِيرًا ⑥﴾ [الإسراء: ٤ - ٧].

مقامات الوحي

عز الله سبحانه أن يراه أحد في الدنيا، وهذا ما قضاه تعالى، وكان لابد لعباده من معرفته ومعرفته ما يريده منهم، وما من طريقة تصلح للوصول مراده إليهم إلا منه، فقدر أن يكون ذلك بالوحي، وهذا الوحي له صور متعددة، بحسب الحكمة الإلهية، وقد كانت كما أخبر ربنا بواحدة من ثلاث حالات، بينها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

ولها مقامات، فتكليم الله لعبده هو مقام أشرف من الوحي بواسطة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: التكليم من وراء حجاب:

إن تكليم الله جل جلاله أحدًا من عباده لهو مقام شريف، ومنزلة عظيمة، يختص الله بها بعض رسله، يقول المولى عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهي صفة لله على الحقيقة من غير تعرض لكيفيتها، أثبتنا لنفسه مؤكدًا لذلك بالمصدر؛ حتى يدمغ قول من قال: إن الكلام هنا مجازي وليس على الحقيقة^(١)،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ١٥٤.

وعلى العكس من ذلك، نجد أن الله تعالى يؤيد رسله وأتباعهم، ويغير لهم نواميس الكون، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].
ومن أمثلة ذلك:

❖ نوح عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

❖ إبراهيم عليه السلام، يقول الله جل جلاله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَٰهَتَكُمْ إِنَّكُمْ لَكُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِزِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

والقرآن مليء بمثل هذا، من بيان السنن الربانية القدريّة المعلقة على استجابة العباد الشرعية وعدمها.

وترك عيالاً ودينًا. قال: (أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟) قال: بلى يا رسول الله. قال: (ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] (١).

ثانيًا: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري:

والغالب من أحوال الوحي أن يأتي الرسول الملكي وهو جبريل إلى النبي، وهذا الذي ذكره الله جل جلاله في قوله: ﴿أَوْيَرِّمِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١].

وفي قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣-٥].

والدليل على أنه أكثر الوحي هو إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، حينما سئل عن الوحي كيف يأتيه، فقال صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٩٠٥.

فقال جل جلاله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وفي إثبات الوحي بهذه الصورة ما يزيد من يقينهم، ويقوي من عزمهم، ويرفع من معنوياتهم، لذلك نجد أن ممن اختصهم الله تعالى بهذه المنزلة من كانت له مواقف شاقة ومتعبة مع أقوامهم، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، كما كان الحال مع موسى عليه السلام، فإن بني إسرائيل قد خالفوه كثيرًا، واختلفوا على ما جاءهم به، وتعتوا معه في كثير من المسائل، من أمثلة ذلك قصة البقرة، واتخاذهم العجل من بعده، وملالهم من المن والسلوى، وطلب جعل الآلهة، وغير ذلك كثير.

وقد أكرم الله عز وجل نبينا محمدًا بهذه المنزلة في مواطن نذكر منها حينما عرج به إلى السماء وفرض الله تعالى عليه عبادة الصلاة، وهذا فيما يكون في الحياة الدنيا قبل الموت، أما بعد الموت، فإن المؤمنين يتنعمون بتكليم الله لهم ورؤيتهم له، كما حدث مع الصحابي الشهيد عبد الله بن حرام رضي الله عنه.

فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: (لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: (يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟) قلت: يا رسول الله، استشهد أبي

وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول^(١).

فإجابة النبي صلى الله عليه وسلم على السؤال بهاتين الصورتين هو من باب التغليب لا من باب الحصر^(٢).

وهو بهذا يصف الطريقة التي يأتيه جبريل عليه السلام بها في الغالب، وإلا فإنه قد رآه على صورته الحقيقية، وأحياناً كان يأتيه الوحي مناماً، وغيرها من الصور التي لم يذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث.

ثالثاً: القذف في روع الرسول:

والمقام الثالث من مقامات الوحي الذي كان يأتي الوحي فيه للنبي صلى الله عليه وسلم هو ما جاء ذكره في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وهو إما أن يكون إلهاماً أو مناماً أو قذفاً في القلب^(٣).

وقد جاء عن أبي أمامة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها

فأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته)^(٤).

والشاهد هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي)، وهو مقام قد يشارك فيه بعض الناس الأنبياء، ولا يصح التعبير عنه بالوحي، ولا يجب العمل أو التشريع بمقتضاه إلا إن كان لنبي، أما إن كان لغير نبي؛ فإنه يستأنس به ولا يستدل به.

فمثاله من الرؤيا المنامية للأنبياء رؤيا إبراهيم عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا بَنِيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاقُوتَ أَخِي أَفَعَلِ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فعبر عنها ولده إسماعيل عليه السلام بأنها أمر إلهي، ومثاله من رؤيا غيرهم من الناس رؤيا صاحبي يوسف عليه السلام في السجن في قول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتِلْكَ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ومنها أيضاً ما يراه الناس، ويبحثون عنها (٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ٢٧/١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٤١٩/١، رقم ٢٠٨٥.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ٦/١، رقم ٢.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢٠/١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤٣/٥.

الموحي إليهم في القرآن

تبين فيما سبق أن الوحي يتفاضل بين ثلاث مقامات، وهذا باعتبار الوحي إلى الأنبياء، أما إذا تغير الوحي باعتبار الموحي إليهم؛ فإن جنسه يختلف باختلافهم، فلا يصح أن يذكر فيه تفاضل، فوحي الله إلى الأنبياء والرسل يختلف عن وحيه للملائكة، كما يختلف عن وحيه لأهل الإيمان، أيضًا يختلف عن وحيه لغير الأحياء، فكل وحي يختلف في حقيقته عن الآخر، وإن كان ثمة تداخل بين بعضها من حيث المراد. وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: الرسل والأنبياء:

الوحي إلى الأنبياء والرسل هو الوحي الذي قال الله جل جلاله فيه: ﴿وَمَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وهو المتضمن لبيان العقائد، والتشريع، وأخبار الغيب، والسنن الربانية.

كما أن له مقامات ثلاث متفاضلة باعتبار تفاضل الرسل والأنبياء الذين أوحى إليهم به، أو الأحوال والتشريعات، وقد كان فيه الرسل والأنبياء واسطة في البيان والتبليغ بين الله وعباده بهذا الوحي، ومنه ما يكون قاصرًا علمه على الأنبياء فقط، فلم يكلفوا

عمن يعبره لهم، ولا يصح أن يتخذ من رؤيا الصالحين أو الشيوخ دليلًا على أمر شرعي أو حدث غيبي، كما يفعله كثير من الصوفية، ويزعمون أنه من جنس الكرامات.

بتبليغه للناس، كالوحي المنزل على الخضر عليه السلام، وبعض ما لا تطيقه عقول الناس مما أوحى به إلى الرسل والأنبياء، فلقد أرى الله أنبياءه ورسله من الآيات ما يجعل اليقين عندهم كافياً لأن يؤمنوا بما لا يستطيعه غيرهم، وهم بينهم في ذلك اختلاف، كالذي كان بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام، ومن التفاوت في قوة اليقين، فمنهم أولو العزم ومنهم من ليس كذلك، وإنما كان لهم هذا العزم بما قد خصهم الله به من العلم والإطلاع على الآيات ما لم يطلع عليه غيرهم.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ثانياً: الملائكة:

وهو وحي ليس على سبيل التشريع والإخبار، وإنما على سبيل التكليف، فالملائكة مسخرون لطاعة أوامر الله تعالى، وليس لديهم خيار بين الاستجابة والرفض، فقد سخرهم الله جل جلاله لتلقي ما أمرهم بالقبول والانقياد من غير تردد، فمنه أمر الله لهم بالسجود لآدم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فذكر الله تعالى بعد عدم استجابة إبليس للأمر الإلهي أنه من الجن؛ ليكون كالتعليل لعدم استجابته لما أمر به، وأنه ليس كالملائكة في ذلك، حيث إن الله عز وجل وصف الملائكة بأنهم لا يعصونه في أمر.

يقول تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وهو لا يأمرهم إلا بالوحي أو من وراء حجاب، على سبيل التكليف لا على سبيل التشريع.

أما ما جاء من عرض الله عليهم إرادته لخلق آدم وما كان منهم من استفهام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فلم يكن هذا الاستفهام على سبيل الاعتراض^(١)، وإنما كان من باب عدم رغبتهم في وجود من يعصي الله في الوجود، وقد ظهر هذا في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

فهو من باب غيرتهم على مقام وحدانية الله تبارك وتعالى، ولذلك لم يوبخهم الله تعالى على ذلك، بل عرض آدم عليهم؛ ليبين لهم الحكمة من خلقه، لذلك لما تبين لهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ٩٣.

وحصرها، إنما هذه أمثلة عليها.

ثالثاً: أهل الإيمان:

إن الله تعالى كريم رحيم رؤوف بعباده لطيف بهم، ومن كمال لطفه جل جلاله أن يعلمهم بأمور قد يكون لها وقع خطير في حياتهم، ولكن كيف يكون هذا والواسطة بين الله وعباده منقطعة؟! بين الله وحى من الله لهم ولكن من نوع آخر غير وحي النبوة، ومن هذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة بقوله: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة) (١).

وليس معنى هذا أن الوحي قد انقطع بجميع صوره التي ورد ذكرها في القرآن، وإنما خص الرؤيا بالذكر؛ لأنها تكون لأحاد المسلمين بكثرة، وإلا فإن الإلهام يرد عليه، ويكون بعد النبوة، لكنه بحسبه منه ما يكون لخواص المسلمين (٢).

وهو كالذي روى أبو هريرة رضي الله عنه فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه

هذا الأمر؛ اعترفوا لله بجعلهم، ومجدوه بالعلم والحكمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ٣١-٣٢﴾

فأكد لهم ما ظهر لهم من علمه وحكمته، وبين لهم أن هناك من العلم والحكمة أيضاً ما لم يظهر لهم، فقال: ﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٣).

ومما أوحى الله به إلى الملائكة أمرهم بنصر المؤمنين وتثبيتهم، فقال جل جلاله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢).

ومنه الأمر بحفظ بني آدم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (الأنعام: ٦١).

ومنه الأمر بقبض الأرواح، قال جل جلاله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١).

ولهم الكثير من الوظائف التي أوحى الله لهم بها، ليس المقام هنا مقام الوقوف عليها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات، ٣١/٩، رقم ٦٩٩٠.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٣٧٦/١٢.

عمر^(١).

فكان عمر رضي الله عنه ممن اختصهم الله تعالى بذلك، ومنه ما يكون عامًا للمسلمين جميعًا، وذلك بإلهام الله لهم الإيمان برسله وأنبياؤه وما جاؤوا به من الأخبار الغيبية والتكاليف الشرعية.

وكان الإلهام الذي ذكر في الحديث فيما كان قبلنا من الأمم، ومنهم من ورد ذكره في القرآن، وهم ثلاثة:

١. أم موسى عليه السلام: أوحى الله إليها بوحى من قبيل الإلهام، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَوْسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ كَالْقَبِيهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تُخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. يقول السمعاني: والوحي: هو الإعلام في خفية، فأكثر المفسرين على أن معنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَوْسَى﴾ هو إلهامها^(٢)، وكان ذلك وحياً جاءها من الله؛ فكدف في قلبها، وليس بوحى نبوة^(٣).

٢. مريم رضي الله عنها: فقد اصطفاها الله لأمر عظيم، واختصها به، وهو

أن تحمل وتلد من غير بعل، معجزة منه تعالى لعبده ورسوله عيسى عليه السلام، وهذا أمر يصاحبه من الابتلاء بوقوع التهمة والفرية ما يترتب عليه هم وغم عظيمان، فأعلم الله جل جلاله مريم رضي الله عنها به وحياً من غير نبوة، بأن أرسل لها جبريل عليه السلام، الذي ينزله الله عز وجل بالشرائع على الرسل والأنبياء؛ ليلغوها للناس، وقد جاءها؛ ليخبرها هذا الخبر فحسب، ولينفذ المهمة التي كلف بها من نفخ الروح في درعها؛ لتدخل في جوفها وتستقر في رحمها؛ ويخلق الله جل جلاله منها عيسى عليه السلام^(٤)، وليس على سبيل التكليف بالنبوة والرسالة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ آهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا ۖ ۖ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ١٩].

٣. الحواريين رضي الله عنهم: إنهم الذين كانوا مع نبي الله عيسى عليه السلام، فقد كانوا في شدة وبلاء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عمر ابن الخطاب، ١٢/٥، رقم ٣٦٨٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٤/١٢٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/٥١٩.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/١٦٥.

إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/٢٦١.

جلاله الحواريين أن يؤمنوا به؛ ففعلوا وانقادوا، فقرت بهم عين نبيه عليه السلام واستكانت لذلك نفسه.

رابعاً: السموات والأرض:

يوحي الله تعالى إلى مخلوقاته من ألوان الوحي بحسب ما يليق به من حيث: الطاقة، أو الكيفية، أو الوظيفة المناطة به، والمهام التي كلف بها، فوحيه للرسل يختلف عن وحيه للملائكة، وعن وحيه للمؤمنين، ومن باب أولى أن يختلف عن ذلك وحيه لغيرها من الكائنات غير الحية، كوحيه إلى السماوات، فإنه وحي يتناسب مع هذه المخلوقات.

فوحيه للرسل يتضمن رسالة محتواها الأخبار الغيبية والتكاليف الشرعية التي لا صلاح للبشر إلا بها، وكان وحيه للملائكة متضمناً أخباراً وأوامر، لا يستقيم لهم أن يقوموا بما خلقوا له من التكاليف إلا به، حيث إنهم كما قالوا عن أنفسهم فيما ذكره الله عز وجل عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وكيف يتسنى لهم أن يعرفوا أوامر الله لهم من غير وحي يوحى الله جل جلاله لهم به؟!

وكذلك الحال مع بني الإنسان، فإن الهداية لم تكن طوع أيديهم، وليس لهم أن

وكرّب من بني إسرائيل، كما هو حال أتباع الأنبياء، فقد كان بنو إسرائيل يفتنونهم فتناً تزلزل الجبال الرواسي، كيف لا وهم أعداء الأنبياء وقتلتهم؟! يقول الله جل جلاله في سياق عد منته ونعمه وآلائه على عبده عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]. يقول السعدي: «واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعواناً، فأوحيت إلى الحواريين، أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي»^(١)، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، فقد قال بعضهم: إن المراد هنا أن الله عز وجل أوحى إليهم على لسان عيسى عليه السلام، أي: «أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا»^(٢)، فالوحي من هذا القبيل على ألسنة الأنبياء والرسل إنما هو لعموم الناس، وليس للمتبعين فقط، ثم إن المنّة بذلك تكون ضعيفة حين يتبعه اثنا عشر رجلاً وتخالفه الأمة بأسرها، لكن المنّة تكمن في أن الأمة كلها مخالفة له، فألهم الله جل

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٤٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١١٦/٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٤٨.

﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ [الزلزلة: ١ - ٥].

فهي مسخرة لطاعة الله جل جلاله طوعاً، ولو لم يكن كذلك لسخرها كرهاً، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فأطاعته ولانت وخضعت وأذعنت على عظمتها؛ لعلمها بأن الذي أمرها لا يتعاضمه شيء، جل جلاله وعز شأنه، غلب بسلطانه وقهر بجبروته، وأذهل بقدرته تعالى.

خامساً: النحل:

إن المتأمل في حياة النحل وطريقة معيشتها ورحلاتها وصناعتها ليعلم أن ما تقوم به هذه المخلوقات ليست بالاكْتِسَاب ولا بالتعلم، وإنما هي الغريزة التي غرزها الله تعالى فيها، والإلهام الذي جعل من هذا الكائن الصغير ذلك الصانع القدير، فقد هيا الله عز وجل فيها ولها من الأسباب والقوانين الطبيعية والكيميائية التي صارت صناعتها كالسجية، والمطلع على آليات العمل في خلية النحل ليبهره ما سيراه من نظام، ويسخره ما يشاهده من تعاون، ويأخذ لبه ما يراه من التزام كل عامل بعمله الخاص به دون أدنى تدخل أو تطفل.

يتناولوها بعقولهم، أو يكتسبونها بالتأمل؛ إن لم يكن ذلك مؤيداً بتوفيق الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى في كتابه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم)^(١).

وكذلك كان وحيه للسموات يتناسب مع الطبيعة التي طبعت عليها والهيئة التي خلقت بها، فكان وحي الله - تبارك وتعالى - لها بأن تكون مسخرة، وذلك بقوانين ونواميس خاصة لا تصلح الحياة الدنيا إلا بها.

يقول عز وجل: ﴿فَقَضَّسْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

فإذا أراد الله تعالى لها الخراب أوحى إليها وحيًا تتغير فيه تلك القوانين، وتبديل النواميس حتى إن الإنسان الذي ألفها على تلك الحال التي كانت مستقيمة بقوانينها ونواميسها ليتساءل عما اعترأها من خلل، فيقول فيما أخبرنا الله عز وجل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحریم الظلم، ١٦/٨، رقم ٦٦٦٤.

لا تحقر الرأي يأتيك الحقير به
فالنحل وهو ذباب طائر العسل
جعل الله جل جلاله العسل رزقاً لعباده
في الدنيا الذي سيشربون منه في الآخرة،
وقد جمع بين هذه الأشربة في كتابه في
موضعين:

الأول: في سورة النحل على أنها شراب
لهم في الدنيا، فقال جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةً لِّتُفَكَّرُوا بِمِثْلِ مَا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا
خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (١٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ
وَالْأَعْنَابِ تَنزِيلُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ
﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ
ذُلَّالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ
شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾
[النحل: ٦٥ - ٦٩].

والثاني: في سورة محمد صلى الله عليه
وسلم على أنها شراب لهم في الجنة، بقوله
عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا
أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ
طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ
مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَقْفَرَةٌ مِنْ رَيمٍ﴾
[محمد: ١٥].

والأشربة الثلاثة الأولى يستخرجها

ثم هي بعد شعوب وقبائل، فمنها شعوب
قد سخرها الله للمعيشة في بيئة الجبال؛
فتتخذ من كهوفها وشقوقها البيوت، ومنها
قبائل هيأها الله ليكون بيتها في الشجر،
وطائفة أخيرة جعلها الله تأنس بما يصنعه
الإنسان لها من بيوت، ويسر لها الأرزاق
من كل الثمرات وأزهارها، حلوها ومرها،
لتصنع بعد ذلك شراباً شهياً فيه شفاء
للناس (١).

وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ
إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ﴾ (١٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ
رَبِّكِ ذُلَّالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

ليكتمل بذلك للإنسان أنواع الأشربة
التي يأخذها الناس، فمنه ما كان أصله
المطر، وهو الماء، ومنها ما أصله الشجر
وهو العصائر والخمور، ومنها ما أصله
بطون الضأن والجمال والبقر، وكان العسل
رابعها، الذي يأتي به من الكائنات الصغيرة،
التي جعلت مثلاً للرأي الصحيح، في قول
الشاعر (٢):

(١) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من
دقائق المعاني، سامي القدومي، ص ١٣٧.

(٢) انظر: جواهر الأدب، الهاشمي، ٤٣٢/٢،
من قصيدة لابن أبي بكر المقرئ المتوفى سنة
١٠٠١ هـ.

التعامل مع الوحي

إن ذكر الله تعالى لوحيه لهذه المخلوقات في كتابه الكريم جاء لأمر حكيم، ألا وهو بيان كيفية استجابة هذه المخلوقات التي أوحى الله عز وجل، من أنبياء ورسل كرام عليهم الصلاة والسلام، وملائكة عظام عليهم السلام، وسماوات وأراضٍ، وما فيهما من خطير الأجرام، وحتى الصغير الحقير من الهوام، كلها كان شأنها الامتثال لما أمرها الله جل جلاله به في وحيه إليها، شرعيًا كان الوحي أو كونيًا، كلها خضعت وأذعنّت واستجاب ولانت لأمر ربها.

فحري بهذا المخلوق الذي سخر الله له هذه الكائنات أن يكون على سبتها وناموسها، مستجيبًا خاضعًا مدعًا مستسلمًا منقادًا معظمًا لما جاءه من وحي ربه تبارك وتعالى، متدبرًا متعقلًا متفهمًا لما يتلوه منه، خائفًا مما فيه من تهديد ووعد، راجيًا لما فيه من وعدٍ بالثواب والمزيد، سائرًا على هديه الرشيد، وذلك ينتظم أمورًا ثلاثة تمت الإشارة لها، وفيما يلي - بإذن الله تعالى - تفصيلها:

أولاً: تلاوة الوحي:

إن تعظيم ما جاء من عند الله جل جلاله أمرًا بتعميمه لهو من تمام عبادة العبد لربه تبارك وتعالى، وإن الله ما أمر بتعظيم شيء

الناس، ولهم في ذلك وسائل هيأها الله تعالى، أما الرابع فلا حيلة لهم يستخرجونه بها، إلا بأن يكون ذلك بالوحي الغريزي لهذا المخلوق الصغير الشرس، وهذا ما أوحى الله به للنحل، فكانت مسخرة له بأمره تعالى، وليس هذا المقام مقام التفصيل في التفريق بين هذه الأشربة وطرق استخراجها.

يَرْجُمُونَ ﴿الرُّوم: ٤١﴾.

❖ مستقبله للتنشير والإنذار، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ. رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَظَرَانٍ وَقَفَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٦٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَحْدِ وَيَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٦٢﴾

[إبراهيم: ٤٧ - ٥٢].

٤. إن الله عز وجل أمرنا فيه بأوامر لا مثالها، ونهانا فيه عن نواهٍ لا جنتابها، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَنْتَهِ عَنْ مَا يَنْهَى اللَّهُ يُكْفِرْ عَنْهُ سِتْرَانِهِ. وَنُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

٥. جمع القلب، واستحضار الذهن، والتدبر لما يقرؤه جيداً، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٦. إن صلاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة إنما بالقرآن والقيام بحقه، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

مثل ما أمر بتعظيم كلامه، الذي ما شرف شريف ولا عظم عظيم إلا به، وهو ما أوحى الله به؛ لتستقيم أمورهم، هذا لا يتيسر لهم إذا كانوا يقرءونه طرباً، أو يشرونه هذراً، أو يهذونه شعراً، بل كان لابد لهم من تلاوته وتدبره وتفهمه وتعقله، ولكي يتسنى لهم ذلك؛ كان لابد من مراعاة أمور قبل قراءته وأثناءها وبعدها، باستحضار ما يأتي:

١. إن الله تعالى هو من تكلم بهذا القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْتَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ يَأْتِيَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٢. إن القرآن هو خطاب من الله لمن يقرؤه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٣. إن الله جل جلاله أخبرنا فيه بأمر: ❖ ماضية للاعتبار، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

❖ معاصرة للاستحضار، يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

٧. أن نبغى بقرائه الأجر والثواب من

الله تبارك وتعالى، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكْثُرَ ۖ لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

[فاطر: ٢٩-٣٠].

٨. توطين النفس والعزم على تصديق

أخبار القرآن، والاستجابة لما فيه من

الأوامر والنواهي، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٨٣ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ٨٤ ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:

٨٣-٨٥].

وقد أفاض كثير من أهل العلم في كتابة

ما ينبغي أن يكون عليه قارئ القرآن، مثل:

التبيان في الأداب في حملة القرآن للنووي،

فضائل القرآن للمقدسي، وغيرها.

ثانيًا: التخويف بالوحي:

النفس البشرية تركيب من مزيج من الشهوات الداعية إلى الجموح والعصيان والطغيان، فهي ترغب في فعل ما يحلو لها من غير قيد أو ضابط، حتى وإن كان ذلك القيد أو الضابط ما وضع إلا لمصلحتها، وقالوا قديمًا: من أمن العقوبة أساء الأدب.

لذلك كان من مقاصد الوحي الذي أنزله الله تعالى من أجلها التخويف بالوعيد والنذر، يقول الله عز وجل في كتابه عن هذا

المقصد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:

٤٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا

تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد جاء التخويف بالوحي على صور

مختلفة، منها:

١. ذكر قصص الأمم التي عصت رسلها،

وهذا قد كثر ذكره في القرآن الكريم

حتى إن سورة كاملة جاءت على هذا

النموذج، أو كان أغلب السورة عليه،

مثل سورة هود، الشعراء، القمر،

الفجر، نوح، وغيرها.

٢. بيان أحوال العصاة والكفار في النار،

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ

النَّارِ وَمِنْ تَحْتِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ

عِبَادَهُ ۖ يَكِيدُ فَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

٨. وصف فعل المعصية أو فاعلها بالخسران، أو الفسق، أو الفجور، أو الكبر، أو الظلم، أو الكفر، وغيرها مما يعاب به العاصي في القرآن، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

٩. بيان أن فعل المعصية اتباع للشيطان، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

١٠. بيان أن فعل المعصية عداوة لله وأوليائه الرحمن، يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١. إعلان الحرب على فاعل المعصية من الله، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُبْتَغُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

١٢. بيان أن المؤمنين يجتنبون المعاصي ولا يقتربون منها، يقول

٣. ذكر العقوبات على المعاصي، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

٤. التهديد على المعصية بانتقام الله من فاعلها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

٥. بيان أن في المعصية تعدياً لحدود الله، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

٦. بيان أن فاعل المعصية مستحق لغضب الله، يقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

٧. الجمع بين أكثر من عقوبة لفاعل المعصية، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِالْفُجْرَاءِ مَرُّوا كِرَامًا ۚ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٣].

ثالثًا: اتباع الوحي والاستمسك به:

إن موقف الناس من الوحي بين أمرين: إما الاتباع، وإما الإعراض، أما أهل الإعراض فيحتاجون إلى وقفة معهم - وستأتي إن شاء الله عز وجل - ذلك أن أسباب الإعراض وسبله متعددة، وليس هو من باب التعامل المطلوب بيانه والدعوة إليه، بل المطلوب هو بيانه والتحذير منه، وأما الاتباع فهو مندرج تحت عنوان هذا القسم، وإن كان كل من الأمرين يحتاج إلى إفراده في بحث خاص كامل، فالتناس جميعًا بين مستمسك بالوحي، أو معرض عنه، أو متمسك ببعضه ومعرض عن بعضه الآخر، والمستمسك به بين مجتهد في ذلك، وبين مقصر فيه، والذي أراده الله تعالى من عباده

تجاه الوحي هو الاتباع والاستمسك به، ويظهر هذا من خلال كثير من الآيات التي دعا الله عز وجل العباد فيها إلى التمسك بما أنزله إليهم، وثناؤه على ما أنزله إليهم، وثناؤه على المستمسكين به، ووصفه لما أنزله عليهم بأفضل ما يوصف به منهج، وبيان فضله عليهم فيه، وبيان أثره في حياتهم وآخرتهم، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١. دعوة الله جل جلاله العباد للتمسك بالوحي.

ومثال ذلك في الآتي:

﴿إن أول ما يطالعنا في كتاب الله - تبارك وتعالى - سورة الفاتحة، التي قسمها الله تعالى بينه وبين عبده، فكان القسم الأول هو الشاء على الله بما هو أهله، والقسم الثاني هو الذي قال عز وجل فيه هذا لعبدي، ولعبي ما سأل، كما ثبت ذلك عن رب العزة في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله تعالى: أثني علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قال: حمدني عبدي، وقال

﴿هَ أَقَوْمٌ﴾ [الإسراء: ٩].

٣. بيان فضل الوحي عليهم.

ومن أمثلة ذلك:

﴿يَمُنُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا

أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْمَحَبَةِ

بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّقَاقِ، يَقُولُ تَعَالَى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ

فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿فما هي النعمة التي أصبح بها المؤمنون

عباد الله إخواناً؟ إنها نعمة إنزال القرآن،

وإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم

بهديه النبوي في التعامل مع القرآن.

﴿يقول الله جل جلاله: ﴿وَأَنْتُمْ لَذِكْرُكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يقول أهل البلاغة: إن أقوى مصراع

من مصاريع الشعر بلاغة هو قول امرئ

القيس^(١):

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وهو مصراع^(٢) قصيدته المعلقة، ذلك أنه

(١) وشطره الثاني يقول فيه: بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

(٢) انظر: المصراع في الشعر هو أحد شقي البيت الذي يكون في أول القصيدة، بحيث يكون الشطر الثاني منه على قافية الشطر الأول فيه،

مكون من ست كلمات، تضمنت ستة أمور،

فقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى،

وذكر الحبيب، وذكر المنزل، وجاءت هذه

الآية -ومثلها كثير- لتثبت تهاوي كلام

العرب أمام إعجاز القرآن البياني، فهي

أيضاً من ست كلمات لكنها تضمنت أموراً

عديدة تفوقت بها على المصراع المذكور،

وقد وقف المفسرون والبلاغيون منها على

الآتي^(٣):

﴿المصراع جملة فعلية، والآية جملة

اسمية؛ فهي أثبت وأدوم.

﴿المصراع جملة طلبية، والآية جملة

خبرية، فالأولى يحتمل وقوعها

وعدمه، أما الآية فهي صادقة متحققة

الوقوع؛ حيث إنها تحتمل الصدق

والكذب، والثبوت والانتفاء، وهي من

كلام الله جل جلاله فهي حتماً صادقة.

﴿ليس في المصراع ما يؤكد من الكلام،

والآية مؤكدة بتأكيدات عديدة، فهي

اسمية، وهو تأكيد لها، مبدوءة بالقسم

المضمر، الممهد له بالواو، مؤكدة بأن،

ومؤكدة باللام المزحلقة.

﴿جاء بكلمة ذكر نكرة؛ ليتسع لجميع

أنواع الذكر، ذكر القرب من الله، وذكر

ويكونا متماثلين، كمصراعي الباب الذي له ضلفتان متساويتان.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢٠/٢٥.

مِنْ عِبَادَتَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾

وهو كذلك لمن اهتدى به، فقد كانوا قبل أن يوحى به الله عز وجل إليهم أموات القلوب، عمي الأبصار، صم الأذان عن الحق الذي خلقوا من أجله؛ فبعث الله به إليهم؛ فأحيا به قلوباً ميتة، وفتح به أعيناً عمياً، وأسمع به آذاناً صماً، ثم دعاهم تبارك وتعالى أن يثبتوا على الاستجابة له؛ لأنه به تكمل وتكمل حياتهم الإيمانية^(١).

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وإن في هذه الآية تحذيراً لهم من عقاب الله لهم إذا لم يستجيبوا، أن يعيد الموت إلى قلوبهم، فهم يعتقدون أنهم بما عرفوه من حقائق الإيمان فقط ودراستهم لها دراسة نظرية أنهم أحياء، ظانين أن العلم فقط، أو التحلي ببعض مظاهر الدين ينفعهم ولا يضرهم معه مخالفة ما دعاهم الله جل جلاله إليه من الاستقامة على الإسلام كله.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

العقل بالرشاد، وذكر الشرف بين العباد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾.

❖ فصل بين الذكر المتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم وبين الذكر المتعلق بقومه، وذلك أن الذكر له صلى الله عليه وسلم ثابت بهذا القرآن، بينما الذكر لقومه معلق على مدى استجابتهم له بقوله تعالى: ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

❖ وفيها تعريض بالمعرضين عنه، إذ حين يثني على المستجيب؛ يفهم من ذلك أن المعرض مذموم بعدم استحقاقه لهذا الثناء.

❖ أشار إلى عاقبتهم على حسب استجابتهم لهذا الذكر، بقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تَسْتَخْلُونَ﴾، فهي إشارة إلى إثبات اليوم الآخر، وبيان أن السؤال كائن للجميع، يسأل الرسول عن استجابة قومه له، ويسأل المرسل إليهم عن مدى استجابتهم له، والعمل به، وهو سؤال تقرير، ويسأل المعرضون سؤال توبيخ وتهديد وتقريع.

٤. بيان أثره في حياتهم وآخرتهم. وصف الله تعالى ما أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بالروح.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٦٢٤.

موقف المعرضين من الوحي

إن الإعراض عن وحي الله تبارك وتعالى هو حال أغلب الناس، ذلك لما يغلب عليهم من الأهواء والشهوات ودواعي الإعراض عن الوحي، وقد كانت صور إعراضهم عن الوحي ومظاهره مختلفة، بحسب اختلاف الدواعي لذلك؛ فكانت عاقبة إعراضهم عليهم وخيمة، ونتائجه أليمة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: دواعي الإعراض:

إن دواعي الإعراض عن الوحي متعددة ومتنوعة، فهي ما يأتي الشيطان للبعد من خلالها فيدعوه لأن يعرض عما أنزله الله إليه، وهي صفات شارك إبليس كثير من الناس فيها، فهو إمامهم وقائدهم؛ وهم إضافة إلى ذلك عمي الأبصار، لا يرون أين يصار بهم، ومن هذه حاله فهو لا يرى السلامة إلا في كمال الانقياد والتسليم لمن أمسك بزمام الغل الذي في رقبته.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَلَمْ يَأْتِ الْآذَانَ فهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

فلا يقاوم خشية الاختناق، ولا يترك؛ فينتهي به مصيره إلى الضياع، وما هي إلا أوهام وخيالات، سببها الاستكبار الذي فيه اغترارهم وحرمانهم، والإعراض الذي أنساهم أنفسهم،

فإنها تبدأ بخطوات ثم تنتهي بالمهلكات الموبقات المبعدات عن رحمة الله عز وجل.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه؛ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها. فقال الأحنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدق. فقام عنه الأحنس بن شريق^(٢).

فما منع أبا جهل من الاهتداء بهدى النبي صلى الله عليه وسلم وتصديقه بالقول والعمل بعد أن صدقه بالقلب إلا الحسد، فقد شهد بنبوته، لكنه رفض كل الرفض اتباعه، والداعي لذلك التنافس في العلو في

والريبة التي في قلوبهم؛ فكانت سببًا لشقائهم وعنادهم الذي أورثهم الخسران المبين، وحب الرياسة الذي أطغاهم^(١)؛ فعادوا بعده في الذل المهين؛ فهل أمثال هؤلاء سيعبؤون بالإنذار؟ فهي الموانع والقواطع التي منعتهم الهداية؛ لأنها أغلال وضعت في أعناقهم، وبيان هذه الدواعي فيما يأتي:

١. الحسد.

فهذا شقيهم أبو جهل، وما جاء من خبره فيما رواه الإمام البيهقي: «أن أبا جهل -عليه لعنة ربه- وأبا سفيان رضي الله عنه والأحنس بن شريق رضي الله عنه خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا؛ ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق؛ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم؛ لأوقعتم في نفسه شيئًا.

ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٦٠/٧، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩٢/٢٢.

(٢) دلائل النبوة، البيهقي، جماع أبواب المبعث، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، ٢/٢٠٦.

الدنيا، والعصية العمياء، ووراء ذلك كله الحسد.

٢. اتباع دين الآباء والأجداد.

ومشهد آخر مع من كان مدافعاً عنه صلى الله عليه وسلم، مع عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله). فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانُ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية^(١).

والداعي الذي منع أبا طالب من الاستجابة لما دعاه إليه النبي صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك لا إله إلا الله، ٩٥/٢، رقم ١٣٦٠.

عليه وسلم رغم حبه الشديد لابن أخيه ومبادلة النبي صلى الله عليه وسلم له هذا الحب وهو يعلم اتباع دين الآباء والأجداد وتقديس عوائدهم، والهيبة من ذم الناس يعتبر من الدواعي المعيقة والمغلقة عليه طريق الهداية.

٣. العنصرية.

مثال آخر وهو ما رواه أبو نعيم عن صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل فناء بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين، كسلانين ساقطين يمشيان الهويناء، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله، ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الهم، قالت: فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي -حيي بن أخطب-: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبداً»^(٢).

وهذا هو عين ما وصف الله تعالى به اليهود في قوله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ

(٢) دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني، ص ٧٧.

النَّاسِ عَذْوَةَ الَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ [المائدة: ٨٢].

فكانت القومية والعرقية والعنصرية مانعة من الاتباع، فهم يرون أنهم أحق الناس بالنبوة، ولكنها فضل الله يؤتية من يشاء سبحانه، وخسثوا هم وما منوا به أنفسهم.

٤. حب الرياسة.

حادثة أخرى مع رأس النفاق، من حديث أسامة: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادته يعود من شكرو^(١) أصابه على حمار عليه ألحاف^(٢) فوقه قطيفة، فركبه فخطمه^(٣) بحبل من ليف، وأردفني خلفه، فمر بعبد الله بن أبي وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تذم أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم ثم جلس فتلا القرآن، ودعا إلى الله وذكر به وحذر وبشر وأندر، وعبد الله زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه به ولا تأت به في مجلسه بما يكره.

- (١) مرض، انظر: العين، الفراهيدي، ٣٨٨/٥.
(٢) غطاء، انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣١٤/٩.
(٣) جعل على أنفه خطاماً، وهو حبل يربط على مقدم وجه الدابة وفكيها، ليمنعها من العض.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٤٥/١.

قال: وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادته وفي وجهه ما قال عدو الله بن أبي، فقال: والله يا رسول الله، إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه؟ قال: (أجل). ثم أخبره بما قال ابن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لتنظم له الخرز لتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً^(٤)!!

ومنها يظهر المانع والقاطع الذي حال دون إعلان صدق النبي من عبد الله بن أبي مع استعذابه لكلامه؛ إنه الرياسة وحب المنصب، أغلال بيد إبليس يقود بها أتباعه وأوليائه، ومن زاوية ما أثرت هذه الأغلال، فهي جعلت رقابهم مقمحة؛ ليرز ما فيهم من الكبر الناتج عن وجود هذه الأغلال في أعناقهم، ومن زاوية حالهم في الآخرة، فهي صورة لحالهم وهم يسحبون بها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾^(٥) فِي النَّارِ يَسْجُرُونَ ﴿[غافر: ٧١-٧٢].

فتقمح جراء ذلك الأغلال بأعناقهم ورؤوسهم من شدة السحب، فما أعظمه من أسلوب، وما أحكمه من منهاج في التنفير من تكذيب الرسل، لكن الحق أعقب ذكر حالهم في هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ﴾

(٤) انظر: الاكتفاء، الكلاعي الحميري، ٣٠٩/١.

فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ [يس: ١١].

ثانيًا: عاقبة الإعراض:

إن الإعراض عن الاهتداء بوحي الله جل جلاله هو أمر في حد ذاته غاية في الخسران وإن لم يترتب عليه العذاب الذي توعد الله عز وجل المعرضين به، فكيف إذا ترتب عليه العذاب الأليم الشديد المهين في الآخرة؟! ما هو حال المعرضين؟ إجابة هذا السؤال تظهر من خلال آيات ذكرها الله تعالى في كتابه، نستعرض بعضًا منها فيما يأتي:

١. المعيشة الضنك في الحياة الدنيا.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ [طه: ١٢٤].

ما هي المعيشة الضنك؟!

قال الثعلبي: «كل مال أعطيته عبدًا من عبادي قل أو كثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن قومًا ضلّالًا أعرضوا عن الحق، وكانوا أولي سعة من الدنيا أكثرين؛ فكانت معيشتهم ضنكًا، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس بمخلف لهم معائشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب به، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن

به اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك» (٢).

٢. حياة اليأس.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِنَّا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

والمعنى: ﴿إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، بأن وصل إلى مطلوبه ﴿أَعْرَضَ﴾ أي: اغتر وصار غافلًا عن طاعة الله، ﴿وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ أي: تباعد من أهل الحق ولم يقتد بهم؛ تعظمًا لنفسه كديدن المستكبرين، ﴿وَإِنَّا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: أصابه بلاء؛ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي: قنوطًا من رحمة الله حزينًا، ولم يتفرغ لذكر الله تعالى» (٣).

٣. التعرض لانتقام الله عز وجل بسبب ما اقترفوا من الظلم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

جاء الخبر على صورة الاستفهام؛ لتأكيد الكلام، وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام وترك لنا الجواب؛ لنقول نحن: لا أحد أظلم ممن فعل ذلك، والإقرار سيد الأدلة، فالإعراض عن هدي الله تعالى، ليس هناك ما هو أشد ظلمًا منه، أي: ممن ذكره الله بآياته القرآنية ومعجزات

(٢) الكشف والبيان، ٦/ ٢٦٥.

(٣) انظر: مراحيب، محمد بن عمر الجاوي، ٦٣٥/١.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨٤٣/٢٢.

ونسأله أن يحفظ علينا إقبالنا على كتابه
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، القرآن، محمد صلى الله عليه
وسلم، الملائكة، النبوة

رساله ثم أدبر عنها وهجرها وجحدھا، كأنه
لا يعرفھا، لذا فإن الله سبحانه ينتقم أشد
الانتقام من هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله
واقترفوا المنكرات والموبقات.

إن القرآن الكريم هدى ورحمة، لما فيه
من بيان سابق قبل المفاجأة بألوان العقاب
أو العذاب في الآخرة، كما أوضحت هذه
الآيات^(١).

٤. يأتي يوم القيامة أعمى يحمل ثقل ذنب
الإعراض.

يقول الله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ
يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠].

ويقول جل جلاله أيضًا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وآتيناك من لدنا قرآنًا فيه ذكر للرحمن،
وذكرى وموعظة للإنسان، ومن أعرض عن
القرآن وذكره وما فيه فإنه يحمل يوم القيامة
حملاً ثقيلاً من الآثام والأوزار خالدين في
عذابه، وبئس الحمل حملهم يوم القيامة،
وهم فوق ذلك عمى الأبصار كما كانوا في
الدنيا عمى البصائر^(٢).

إذن هي ألوان مركبة من الشقاء في الدنيا
والآخرة جراء إعراضهم عما أوحى ربهم
جل جلاله به إليهم، نعوذ بالله من حالهم،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٤/٨٩٤٣، التفسير
الوسيط، الزحيلي، ٣/٢٠٤٨.

(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي، ٢/٥٠٥.